سكان الريف الليبيون في إقليم المدن الطرابلسية منذ فجر التاريخ حتى نهاية العصر الروماني

موسى امعمر زايد

كلية التربية -جامعة الزيتونـــة

المقدمة

يُعَدُّ إقليم المدن الطرابلسية من الأقاليم المهمة على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، والتي كان لها دور بارز في مجريات الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية في منطقة المغرب القديم.

فمن حيث الموقع تربع هذا الإقليم على رقعة جغرافية واسعة ، فهو يقع على الساحل الجنوبي للمتوسط وبساحل يزيد على 500كم، وكذلك فهو حلقة الوصل بين ساحل المتوسط ووسط القارة الأفريقية وجنوبها، كما شكل هذا الإقليم جسراً متيناً لنقل الحضارة بين دول المشرق مصر والعراق، و ولايات المغرب القديم.

وبطبيعة الحال فقد تعرض هذا الإقليم كغيره من أقاليم المغرب القديم للعديد من موجات الهجرة سواء العربية أو الأوروبية في مختلف الأزمنة التاريخية، وكان من أهم هذه الهجرات هي الموجة الفينيقية التي تلتها عملية الاستقرار الفينيقي الواسع في المنطقة، حيث وصل التجار الفينيقيون إلى السواحل الليبية منذ حوالي 1200ق.م،واستطاعوا تكوين علاقات متميزة وسلمية مع السكان المحليين الذين ما لبثوا أن امتزجوا معهم و أخذوا عنهم العديد من سبل الحضارة والتقنيات المبتكرة، ثم تلت هذه الموجات زحف الرومان على المنطقة واحتلالها ومحاولاتهم الحثيثة لرومنة المنطقة واحتواء سكانها وصهرهم في بوتقة الحضارة الرومانية.

هؤلاء السكان هم محور حديثنا في هذا البحث حيث إن غالبية مصادر التاريخ القديم تهتم بدراسة تاريخ وحضارة الأمم الوافدة كالإغريق والفينيقيين والرومان في حين أُغفل عنصر مهم من عناصر التكوين الحضاري، وهو العنصر المحلي أصحابُ الأرض الحقيقيون، والذين شكلوا الخطوط الرئيسة في لوحة الحضارة الطرابلسية، فهم أصحاب الرسوم الصخرية التي عثر عليها في العديد من

المناطق الداخلية كرسومات سيدي غريب بترهونة ورسومات أبيار مجّي التي تعود إلى فترات موغلة في القدم.

وهم الذين شيدوا النصب التذكارية، والمعابد التي تعود إلى فترات تاريخية متفاوتة، والتي من أهمها معبد الإله آمون في منطقة الخضراء، والذي يجسد رقي وتحضر هؤلاء السكان وامكانياتهم الكبيرة، والرسومات الجدارية التي تحاكي مظاهر الحياة اليومية والموسمية وتبين بما لا يدع مجالاً للشك بأنهم كانوا أصحاب حضارة لها طابعها الخاص والمميز، وهم أيضاً سكان الأودية التي تغنى بها العديد من المؤرخين القدامى، وأصحاب المزارع والضياع والفلل التي انتشرت في ربوع ضواحي منطقة المدن الطرابلسية.

وعليه فإن الهدف الرئيسي في عمل هذا البحث يتمحور في الوصول إلى فهم طبيعة سكان المنطقة في تلك الفترة التاريخية، السكان الذين مازالت آثارهم شاخصة للعيان.

اشكاليات البحث : -

نحاول في هذا البحث طرح العديد من الاشكاليات والتي سنجيب عنها بالأدلة والتفصيل حسب المادة التاريخية المتوافرة، وما تقتضيه شروط البحث العلمي، ومن هذه الاشكاليات:

1 -من هم سكان المدن الطرابلسية وريفها؟، وما هي طبيعة حياتهم قبل مجيء الفينيقيين؟ وما هو موقفهم من الاستيطان الفينيقي؟، وكيف أصبح وضعهم حسب المتغيرات السياسية والديموغرافية الجديدة؟

2 -ما هي طبيعة العلاقة بين الفينيقيين والسكان الأصليين؟ وكيف انتشرت الثقافة واللغة الفينيقية في منطقة الريف؟ وما مدى استفادة الليبيين منها؟

3 -تحدث المؤرخون عن عملية توطين القبائل المحلية من قِبل السلطات الرومانية لغرض حماية الحدود؛ كيف كانت عمليات التوطين؟ وكيف كانت المنطقة قبل تلك العمليات؟ ومن هم المستوطنون الجدد؟ وأين ذهب السكان الذين لم يكونوا من النخبة المستوطنة؟

4 -عمل الكثير من المؤرخين على عسكرة المنطقة، والادعاء بأن رجالها وزعماء عشائرها هم من أدوات السيطرة الرومانية على المنطقة، أو من رجالات المليشيات الذين أطلقوا عليهم تارة اسم الليميتاني، وتارة أخرى الجنتيلي، ومن وجهة نظري هذا غير مقبول، فسكان المنطقة ليبيون لهم جذور تاريخية عريقة، استطاعوا تكوين مجتمع فلاحي رعوي متطور بامتياز، فاض انتاجه وصُدر للمدن الساحلية،

وركب البحر إلى أسواق بعيدة من العالم، كل ذلك أدى إلى رفاهية العيش واكتظاظ السكان بمنطقة الريف الغنية.

كما تشير الكثير من الأدلة الأثرية والتاريخية إلى أن سكان هذه المنطقة هم من الليبيين الأصليين اختلطوا بالوافدين الفينيقيين وأخذوا عنهم سبل الحضارة، وطوعوها وفق احتياجاتهم ومتطلباتهم الحضارية.

5 -يرى العديد من المؤرخين بأن ظاهرة الاستقرار الريفي في إقليم المدن الطرابلسية ما هو إلا ظاهرة مؤقتة أوجدتها سلطات الاحتلال للدفاع عن مناطقها ذات الأهمية الاستراتيجية، وانتهت بنهاية وضعف السلطة المركزية الرومانية، وأن حضارتها هامشية تفتقر إلى أدنى المقومات .

وبطبيعة الحال نرى أن الاستقرار الريفي في المنطقة هو امتداد طبيعي لسكان امتهنوا حياة المزارعين و ألفوا حياة الاستقرار، وانتجوا الكثير من المحاصيل الزراعية في هضابهم الواسعة و أوديتهم الغنية التي عُرفت بخصوبة تربتها وغزارة انتاجها، وتدل على ذلك العديد من الشواهد الأثرية مثل الصهاريج والسدود والمباني وأنواع شتى من الفخاريات، وغير ذلك من الآثار المتنوعة.

وقد استمرت هذه المنطقة في العطاء ورافداً رئيسياً من روافد اقتصاد المدن الساحلية حتى فترات متأخرة عندما بدأ المناخ في التغير وساد التصحر معظم أرجاء المنطقة، وقلّ معدل سقوط الأمطار فبدأت تفقد مقوماتها الاقتصادية شيئاً فشيئاً، كما شكّلت الظروف السياسية عاملاً مساعداً في ضعف هذه المنطقة وانهيار حضارتها.

ومن خلال المصادر الأثرية، والكتابات الأدبية المعاصرة لتلك الحقبة، والدراسات والأبحاث والمؤلفات الحديثة، سأحاول جاهداً إبراز الدور الحضاري المهم للسكان المحليين، وأن اتعمق بالدراسة والتحليل في مختلف الجوانب الحضارية لسكان الريف، ونقد بعض النظريات السابقة التي عملت على إغفال دور العنصر المحلي، والتركيز دائماً على اصحاب الحضارات الوافدة.

أهمية الموضوع : -

إن موضوع الدور الحضاري للسكان المحليين في منطقة المدن الطرابلسية من المواضيع المهمة في تاريخ ليبيا القديم، حيث إن مثل هذه المواضيع لم تلق اهتماماً حقيقياً من قبل الباحثين الأجانب، الذين ركزوا جل دراساتهم على الإرث الحضاري الأجنبي، وكيف استطاع الرومان توطيد حكمهم ونشر مقومات حضارتهم بين السكان المحليين.

وقد كان هذا البحث فكرة تراودني منذ فترة محاولاً أن أُضيف شيئاً ولو يسيراً يلقي الضوء على أحوال الليبيين في هذه الفترة التاريخية، وربما يكون حافزاً لدراسات أخرى أدق وأشمل تهتم بتاريخ المنطقة وحضارتها.

كما أنني حاولت أن اتناول الموضوع بغير الطريقة التقليدية للسرد التاريخي وإنما حاولت اتباع المنهج التحليلي، الذي يرتكز على التحليل والنقد مقترناً بالأدلة التاريخية الحقيقية، والإجابة عن كل التساؤلات السابقة بموضوعية وحيادية، وبأسلوب علمي أكاديمي مقبول.

سكان المنطقة قبل مجيء الفينيقيين

تتميز هذه المرحلة بوجود العديد من المجموعات البشرية التي سكنت سواحل الإقليم وضواحيه واستطاعت تكوين حضارة قبلية امتهنت الصيد والرعي والزراعة منذ العصر الحجري الحديث، حيث عثر في العديد من المواقع في منطقة جبل نفوسة وفي سهل جفاره على أدوات حجرية يرجع تاريخها إلى مرحلة متأخرة من العصر الحجري الحديث (رشيد الناظوري، 1981م. ص58).

هذا وقد شكلت هذه المجموعات البشرية مع مرور الزمن عدداً من التكتلات التي جمعتها روابط اجتماعية أو عرقية واحدة، وربما كان للعامل الاقتصادي دوره الكبير في اتحاد هذه المجموعات، فالسيطرة على الأماكن الزراعية والرعوية والمحافظة عليها يتطلب قوة بشرية ضاربة تحمي أماكن الاستقرار، وتنظم سبل العيش وفق تنظيمات محددة متعارف عليها بين أفراد المجموعة، وهو ما أدى إلى ظهور بما يعرف اصطلاحا بالقبيلة.

كل قبيلة من هذه القبائل انفردت بكيانها المستقل وأراضيها الخاصة، وتنظيماتها الاجتماعية والسياسية المستقلة، ونظراً إلى اختلاف طرق المعيشة، وأماكن الاستقرار لم يحدث أي اتحاد سياسي بين تلك المجموعات، بل كانت القبيلة هي الوحدة السياسية والمكانية لمجموعة الأفراد المنتمين إليها، كذلك لم تسجل لنا المصادر القديمة أية نزاعات أو حروب قامت بين هذه القبائل من أجل السيطرة، أو على مناطق النفوذ.

وعلى الرغم من أن الليبيين القدماء كان لهم أثر مهم في مجريات الأحداث السياسية والاقتصادية في المنطقة، وانتشرت مضارب قبائلهم بشكل واسع في سواحل ليبيا ومناطقها الداخلية وحتى سفوح جبالها وصحرائها، وذكرتهم المصادر التاريخية في جميع مراحل التاريخ القديم؛ إلا انهم لم يتركوا لنا مخلفات أثرية بارزة تدل على عمق حضارتهم ومراحل تطورها.

كما أن عدم وجود آثار كتابية لتلك القبائل يجعلنا غير قادرين على فهم الكثير من جوانب حياتهم الطبيعية، فأعمال التنقيب الأثري التي جرت في العديد من مناطق إقليم المدن الطرابلسية لم تسفر عن أية نتائج إيجابية قد تصل إلى فترة ما قبل الاستيطان الفينيقي الذي قلّتْ آثاره أيضاً.

وربما نعلل لعدم وجود آثار المواقع السكنية وملحقاتها في مناطق الاستقرار القبلي في المنطقة والتي عرفت ذلك الاستيطان منذ بداية العصور الحجرية بنوعية النمط الحياتي لتلك المجموعات البشرية الذي تميز بالحركة والترحال وهو أقرب إلى الحضارة الرعوية منها إلى حياة الاستقرار الزراعي ـ الذي نشأ متأخراً وكان انتشاره بطيئاً جداً..

وهناك بعض القبائل التي حاولت الجمع بين هاتين الحرفتين الرعي والزراعة معاً ؛ فتقوم بزرع محاصيلها الموسمية القمح والشعير في فصل تساقط الأمطار الموسمية وهو فصل الخريف، ثم تنتقل في فصل الشتاء إلى مناطق أكثر دفئاً وقد تكون أنسب لرعي المواشي والصيد، وغالباً ما تكون في اتجاه الجنوب في المناطق شبه الصحراوية والواحات للاستفادة من أشجار النخيل في جني التمور وصنع بعض الأغراض المنزلية منها، ومع إطلالة فصل الربيع تعود إلى مناطق زراعة الحبوب وتبقى إلى أن تحصد تلك المحاصيل وتبقى بها حيث تشكل تلك المناطق مراعي جيدة للمواشي طيلة فصل الصيف، ثم تبدأ دورتها من جديد.

وبطبيعة الحال فلم يكن هذا الواقع ينطبق على كل المجموعات القبلية في المنطقة، وخاصة تلك التي تقع مضاربها على ضفاف الأودية الخصبة كوادي كينبس الشهير أو المناطق الساحلية الخصبة كمنطقة سهل الجفارة وهضبة ترهونة مسلاته، ومنطقة الجبل الغربي، و أودية سوف الجين والمردوم والبي الكبير.. وغيره من الأودية التي شهدت استيطاناً بشرياً واستقراراً زراعياً مبكراً، فقد كانت العديد من القبائل تشكل مجموعات مستقرة امتهنت الزراعة وكذلك الرعي في مناطق استقرارها الواسعة، وقد عرفت غراسة الأشجار المثمرة كالزيتون والعنب وأشجار الكروم، وتُعدّ شجرة الزيتون من الأشجار الأصيلة في المنطقة، والدليل على ذلك الانتشار الواسع لهذه الشجرة في مناطق الإقليم، وورود ذكر شجرة الزيتون والزيت الليبي في النصوص المصرية التي يرجع تاريخها إلى ما قبل الألف الأول قبل الميلاد (محمد بيومي مهران، 1990،ص71)، وهو ما يؤكد معرفة قبائل إقليم المدن الطرابلسية بالزراعة المستقرة وممارستها منذ فترات تاريخية قديمة.

ومن بين تلك القبائل التي عرفت بالاستقرار في منطقة إقليم المدن الطرابلسية: قبيلة المكاي وقبيلة النسامونيس، وقبيلة اللوتوفاجي والجيتولي بالإضافة إلى عدد من القبائل التي ورد ذكرها في عدة أماكن متباينة من أراضي الإقليم.(ينظر الخريطة 1).

(1) خريطة توزيع القبائل الليبية في اقليم المدن الطرابلسي

قبيلة النسامونيس : وهي من أهم وأكبر القبائل الليبية التي كانت تقطن وسط ليبيا وغربها، وتمتد مناطق نفوذها حتى واحات جالو وأوجله، وقد ورد ذكر هذه القبيلة لدى العديد من المؤرخين مثل هيرودوت. سكيلاكس. استرابون. ديودورس الصقلي. بليني الاكبر. وبطلميوس. وغيرهم.

وتشتهر هذه القبيلة بقوتها وكثرتها العددية، وأنها كانت تمتهن حرفة الرعي بالإضافة إلى زراعة المحاصيل الموسمية، حيث يخبرنا المؤرخون بأن الإقامة الاعتيادية لسكان هذه القبيلة على ساحل سرت الكبير، ولكنهم يتركونه في فصل الصيف وينتقلون شرقاً الى واحة أوجله للإقامة هناك وجني ثمار النخيل.(علي فهمي خشيم، 1975م،ص34 -35)

وقد شاركت هذه القبيلة مع غيرها من القبائل الليبية في الإغارة على مناطق النفوذ الإغريقي حيث وصلت في إحدى تلك الغارات إلى مدينة يوسبريدس في حوالي 414ق.م، و أسهمت هذه القبيلة مع قبيلة المكاي بزعامة قرطاج في اجتياح مساحات كبيرة من مناطق السيطرة الإغريقية، مما اضطر الإغريق إلى توقيع معاهدة سلام مع قرطاج استمرت فترة طويلة وضمنت فيها الكثير من الحقوق والمكاسب التجارية والسياسية.(راضية ابوعجيلة،2009، ص168)

قبيلة المكاي: موطن هذه القبيلة إلى الغرب من قبيلة النسامونيس أي أنها تسيطر على منطقة الساحل الغربي الذي يمتد من خليج سرت شرقاً إلى منطقة سهل الجفارة غرباً، ويمتد نفوذها حول نهر كنيبس cinyps الذي يصب في البحر شرق مدينة لبدة ونحو الداخل ليضم هضبة ترهونة ومنطقة أودية سوف الجين وزمزم، ومنطقة ما قبل الصحراء عموما. (Herodotus,IV,4)

وبالنظر إلى ما تقدم ذكره عن موقع استيطان هذه القبيلة، نجد أنها تربعت على مساحات شاسعة من الأرض، اختلفت تضاريسها وطبيعة أراضيها، ففيها السهول الساحلية الغنية، والهضاب، والأودية، والمناطق شبه الصحراوية، والمناطق الجبلية، هذا التنوع البيئي لابد أن يصحبه تنوع في أنماط الحياة التي يعيش عليها الإنسان، وقد مارس سكان هذه القبيلة العديد من الحرف كالرعي حيث كانوا يتنقلون مع قطعانهم حسب توفر المراعي الجيدة لها. والصيد الذي كانت مناطقه متوافرة في البراري والهضاب، والتجارة التي مارسها سكان هذه القبيلة منذ فترات قديمة، والزراعة. (عبدالحفيظ الميار،2001، ص56)

وتذكر المصادر التاريخية بأن المكاي قوم كثيرو العدد، وأن قبيلتهم تتكون من عدة عشائر(Diodorus,III.46)، وعلى الرغم من هذه الإمكانيات الطبيعية والبشرية الكبيرة إلا أن هذه القبيلة لم تشارك في أية حروب أو صراعات مسلحة قامت بها هذه القبيلة منفردة، حتى عندما جاء الغزو الإغريقي إلى ديارهم ومكث فيها ثلاث سنوات لم تحرك هذه القبيلة ساكناً إلا عندما تحركت القوات القرطاجية لرد هذا الاعتداء، هذا يعني أحد أمرين : الأول أن هذه القبيلة كانت عشائرها متناثرة ، ولم تكن تربطها زعامة سياسية قوية، أو أنها تفتقر لوجود جيش مدرب وتنظيمات عسكرية فاعلة، على الرغم من أن زعماء تلك القبائل كانوا يعيشون حياة الملوك المترفة (احمد انديشة، ص50).

والأمر الآخر: هو أن الإغريق نزلوا المنطقة بعد موافقة الليبيين والفينيقيين الذين رحبوا بهم ولم يعترضوا طريقهم، وربما هذا ما حدث بالفعل؛ ففترة ثلاث سنوات ليست بالمدة اليسيرة التي يمكن إغفالها. وكذلك قرطاجة فمن المرجح أنها غضت الطرف في البداية عما يحدث في شرق إقليم المدن الطرابلسية، ولكنها بعد ذلك شعرت بالخطر الزاحف نحو الغرب فعملت على إيقافه، وقامت بطرده وتدمير ما بناه، بمشاركة السكان المحليين.

قبيلة اللوتوفاجي (اكلة اللوتس) Lotophages

ذكر اسم هذ القبيلة في العديد من المصادر القديمة أقدمها في الأوديسة عند هوميروس (Herodotus,IV,79)، الذي ذكر أنهم يقتاتون على ثمار اللوتس الذي يشبه التمر، وهو قوتهم الأساسي، واللوتس وربما هو ما يعرف حاليا باللهجة المحلية(النبق) وهو ثمار لشجيرات شبه صحراوية تسمى السدر ينتشر وجودها على ضفاف الأودية وبطونها، وهذه الأشجار برية تنمو بكثرة في مناطق الدواخل والأودية من إقليم المدن الطرابلسية، وتستعمل جذورها في صناعة بعض أجزاء المحراث الخشبي وبعض المستلزمات الحياتية الأخرى، حيث إنها تتمتع بجذور لينة يتم تطويعها بعد قطعها حسب غرض الاستعمال ثم تترك في حرارة الشمس لفترة حتى تجف وتصبح صلبة جداً*، كما يذكر أن شجرة اللوتس تتميز بخشبها ذو اللون الأسود الذي يستعمل في صنع آلة الناي الموسيقية، والمقابض وأدوات أخرى (علي فهمي حشيم ،1975، ص92)، أما ثمارها فهي حلوة المذاق، ولكن الحديث على أنها قوت السكان فهذا أمر يصعب التسليم به، وذلك للعديد من الأسباب: أولها أن الأراضي سالفة الذكر(اراضي اقليم المدن الطرابلسية) والتي من المرجح أن تكون موطناً لهذه القبيلة أو قريبة منها إلى حد ما هي أراضٍ خصبة صالحة للزراعة، وقد شهدت استيطان زراعي جيد منذ فترة طويلة، ولا تعوزها أبدا المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير، خلافاً عن الأشجار المثمرة كالزيتون والكروم والعنب وغيرها (شارل اندريه جوليان،1969م، ص206)، بالإضافة إلى أن هذه المناطق معظمها رعوية بامتياز وهي تعج بقطعان الماشية المنتجة للحليب واللبن ومشتقاته وكذلك اللحوم، وقد دخلت هذه القبيلة بفعل موقعها الساحلي ضمن السكان المستقرين الذين اختلطوا مع الفينيقيين وعرفوا فيما بعد بالعنصر الليبوفينيقي (Brogan,O. 1975,P.267).

وثانياً إن هذا المنتج لا يصل في قيمته الغذائية إلى درجة أن يكون مصدر رئيسي لغذاء الإنسان، كالتمر مثلا. لذلك فمن المحتمل أنهم عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى تداولهم لهذه الثمار وحملها معهم في سفرياتهم ورحلاتهم من باب التسلية، أو ربما يكون علاجاً لبعض الأمراض.

أما موطن هذه القبيلة فتعددت آراء المؤرخين حول تحديد مكانها الأصلي فيذكر بوليبيوس أن موطنها قرب جزيرة جربة في تونس(Polybius,39,2) ، أما استرابوا فيذكر أنه يعيشون بالقرب من جربة وتنتشر مضاربهم إلى سرت الصغرى، وهنا يصف هيرودوت أراضي هذه القبيلة بأنها على شكل لسان ضيق من الأرض وهو ما عرفت به جزيرة جرجيس التونسية بالقرب من جربة (

* - هذه المعلومات حول النبق واستعمالات الشجرة المنتجة له استقيتها من احد الشيوخ الذين كانوا يعيشون في الوديان، وكانت حياتهم شبيهة الى حد كبير بما نتحدث عنه الان فهم يعيشون على الرعي وزراعة المحاصيل الموسمية كالقمح والشعير، فالمعدات التي صنعت من هذه الشجرة مازالت بقاياها موجودة الى الوقت الحالي.

عبدالحفيظ المايار ،2001 ،ص53) ويرى استرابو بانها تقطن ما بين نهر كينبس وسدرة الصغرى (Strabo,3,4,3).

وهناك فريق آخر يقول بوجود القبيلة في شرق إقليم المدن الطرابلسية، ما بين مدينة لبدة وسرت الكبرى، وهي بالفعل منطقة من المناطق التي تكثر بها وجود هذه الشجرة (Ptolemy.IV,3,6; Pliny,IX,60)

أي إنه يمكن القول أن موطن هذه القبيلة يكون عادة في المناطق التي تتواجد فيها أشجار اللوتس، وهي لا تبعد على كل حال من المناطق الساحلية، غرب الإقليم في ساحل سرت الصغرى أو شرقه عند سرت الكبرى، ومن ثم فإن هذ القبيلة كغيرها من قبائل الإقليم قد انصهرت مع الوافدين الفينيقيين ودخلت في بوتقة العنصر الليبوفينيقي(Mattingly,D.,1995,P.25) .

بالإضافة إلى هذه القبائل هناك إشارات لوجود العديد من القبائل الأخرى التي ذكرت عند بعض المؤرخين، والتي من المرجح أنها كانت دائمة التنقل والترحال، حيث نجد التباين واضحاً في مواقع سكنى العديد منها، ومن بينها قبيلة البسولوي التي ذكرت عند استرابو(Strabo,XVII.3,20) ، وبليني(Pliny.V,4) ، وقبيلة الجيتولي التي حدد استرابو مقر إقامتها بالقرب من منطقة سرت الكبرى(Strabo,XVII.3,20) ، كما ذكر استرابو قبيلة الاسبوستاي ووضع مقرها في غرب إقليم المدن الطرابلسية (Strabo,XVII.3,19) ، بينما صنفها هيرودوت من بين القبائل التي تقطن دواخل قوريني(Herodotus,IV.170) .

كما أنه يجب أن نذكر هنا إحدى القبائل القوية التي كان لها دور بارز في حوادث الإقليم ومراحله الحضارية ألا وهي قبيلة الجرامنت: وهي من القبائل الكبيرة والمهمة، وقد ذكرت لدى الكثير من المصادر التاريخية مثل هيرودوت(174 -4)،واسترابوا(33.5.2)، وبليني (26.5)، وبطلميوس(4.8.1)، وغيرهم.

هذا وقد عاش الجرمانتيون في ظل حكومة منظمة امتازت بوحدة قبائلها وقوة ملوكها، واتخذت هذه القبيلة من مدينة جرمة عاصمة لها، وقد كان لهذه القبيلة دور مهم في مجريات الأحداث السياسية في المنطقة، وكذلك دورها الريادي في قيادة رحلات التجارة الصحراوية ومعرفة دروبها ومسالكها، وقبيلة الجرامنت من القبائل الليبية التي ناصبت العداء للدولة الرومانية، وقد حاولت تشكيل تحالفات قبلية لهذا الغرض، إلا أنهم تعرضوا للعديد من الهجمات الرومانية جعلتهم لا يفكرون في التوسع خارج حدودهم الجغرافية (موسى امعمر زايد، 2015م، ص357)

الحضور الفينيقي ومرحلة الامتزاج الحضاري بين الليبيين والفينيقيين

ارتاد الفينيقيون السواحل الليبية منذ نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد وهم في طريقهم إلى شبه الجزيرة الأيبيرية المعروفة بمناجم الفضة التي تهافت عليها التجار الفينيقيون، وحملوها على ظهر سفنهم الى بلاد المشرق، وخوفاً من التيارات البحرية والعواصف في عرض البحر كانت الرحلات الفينيقية دائما بمحاذاة الساحل، لذلك كانوا مضطرين إلى النزول في أماكن معينة عند اضطراب البحر، أو عدم هبوب الرياح المواتية للإبحار، وايضا عندما يكونون بحاجة إلى اصلاح المعطوب من السفن، أو للتزود بالمؤن والمياه الصالحة للشرب، كما كانت هذه النقاط فرصة سانحة للتبادل التجاري مع السكان المحليين.(Cary, M. , 1949, P.219)

أما الطريق الذي سلكته السفن الفينيقية في طريقها إلى السواحل الليبية، فمن المرجح أن التجار الفينيقيين قدموا عن طريق صقلية، وليس عن طريق الساحل المصري والساحل الشرقي لليبيا - وهو طريق معروف أيضاً ولكنه يصلح أكثر للإبحار من الغرب إلى الشرق وذلك من أجل التيارات البحرية - لأنه لم يتم العثور على أي أثر لمركز أو محطة فينيقية بين مصر وخليج سرت الكبرى، بالإضافة إلى أن الملاحة بهذا الخليج كانت خطيرة بفعل التيارات البحرية وغير مضمونة العواقب. (اصطيفان اكْصيل، 2007م،ص294)

أسس الفينيقيون مدينة قادس في إسبانيا في حوالي 1110ق.م، وأوتيكا في تونس سنة 1101ق.م، وقرطاج حوالي 814ق.م فهل كانت المحطات التجارية المقامة على الساحل الغربي لليبيا أقدم من تاريخ تأسيس هذه المدن أم بعدها؟

إذا سلمنا بأن طريق مجيء الفينيقيين إلى المغرب هو الطريق المذكور سابقا - طريق صقلية - فمن الطبيعي أن تكون معرفة الفينيقيين بالسواحل الغربية لليبيا أقدم من تاريخ تأسيس هذه المدن، لأنها تشكل حلقة الوصل بين السواحل الغربية لأفريقيا وبلاد المشرق، خاصة و أن هذه المراكز أو المحطات كانت كثيرة ومنتشرة على طول الساحل حتى خليج سرت الكبرى.

أي إنه يمكننا القول بأن الوجود الفينيقي بوجهه التجاري يعود إلى أقدم من ذلك بكثير، وخاصة اذا استندنا على ما تم ذكره في المصادر المصرية عن التجارة الليبية ومنتجات أواسط افريقيا الصحراوية، وكذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عن قدم معرفة الليبيين بالتجارة الصحراوية.(عبدالحفيظ الميار،2001م،ص59)

وعلى الرغم من مواقف القبائل الليبية العدائية للإغريق لم تسجل لنا الوثائق التاريخية أية صدامات مسلحة مع الفينيقيين الذين نزلوا إلى السواحل الليبية، وربما يرجع ذلك إلى طبيعتهم السلمية في التعامل التي سار عليها معظم الوافدين، وكذلك المصالح المشتركة التي ربطت بين سكان الساحل المحليين وبين الوافدين التجار ، حيث أن هؤلاء الوافدين لم يدخلوا البلاد كغزاة أو مستعمرين ولكنهم دخلوا في أول الامر كمستأجرين يدفعون ثمن نزولهم في تلك المحطات طيلة تواجدهم فيها للاستراحة والتزود بمياه الشرب والمؤن التي يؤمنها لهم أصحاب الارض(راضية ابوعجيلة، 2009،ص156).

وكذلك للقيام بعمليات التبادل التجاري مع تجار الصحراء، أي إنه أصبحت هناك علاقة تبادل منافع بين الطرفين يأخذ السكان المحليون ما كانوا يحتاجونه من مواد وسلع تجارية، مقابل استراحة هؤلاء التجار وضمان حمايتهم وتوفير مستلزمات السفر اليهم، ثم تطورت هذه العلاقة شيئاً فشيئاً، فأصبح رجال القبائل الذين يقيمون حول هذه المحطات على علاقة وطيدة بالقادمين الجدد.

كما ذُكر عن القبائل الليبية معرفتها القديمة بالتجارة البرية عبر الصحراء، حيث وصلوا تجارها إلى مناطق بعيدة في أفريقيا الوسطى وجلبوا الكثير من المنتجات الطبيعية الأفريقية كالعبيد، والعاج، وبيض النعام، والذهب، والأحجار الكريمة، والجلود، وغيرها من متطلبات السوق المتوسطية، وقد عثر على بعض بقايا هذه المواد في عدد من مقابر الاتروسكيين في إيطاليا(عبدالحفيظ الميار، 2001، ص59).

وفي المقابل جلبوا لسكان أفريقيا العديد من منتجات شعوب البحر كالفخاريات، والخمور، والمنسوجات، و الأواني الزجاجية، وغيرها من المواد التي كانت لها سوق رائجة في تلك المناطق(عمار محجوبي، 1985،ص503).

وقد سلكت هذه القوافل العديد من الطرق أهمها: طريق ينطلق من صبراته إلى كيدامس ومنها إلى جرمة، وطريق يبدأ من ويات الى غريان . مزدة وينتهي في جرمة، ومن لبده هناك طريق ثالث يصل عبر جرزة إلى فزان ومنها الى جرمة(Goodchild,1968,P.159) .

والجدير بالذكر أن رجال القبائل الليبية قد مارسوا حرفة التجارة البرية منذ فترة طويلة وعرفوا مسالكها ودروبها واتجهوا ببضائعهم شرقاً وغرباً، حيث تذكر المصادر المصرية التي تعود إلى عصر الدولة الحديثة(1580 -1085) بأن الملكة حتشبسوت حصلت على ضريبة كبيرة من الليبيين تتكون من سبعمائة سن فيل وكمية كبيرة من جلود الحيوانات المفترسة، وهذا دليل على ممارسة الليبيين

للتجارة وجلب هذه المواد من مناطق بعيدة لا يمكن أن تصل إليهم إلا عن طريق عمليات تجارية منظمة، عمل أصحابها بكل حرفية وكانت مصدرا من مصادر الاقتصاد لتلك القبائل، وربما كان ذلك من الأسباب التي ساعدت على تقبل الليبيين لتجار الشرق.

ونتيجة لاتساع عمليات التبادل التجاري ونجاحها ، عمل الفينيقيون على توسيع هذه المحطات البسيطة بحيث أصبحت أسواقاً للتبادل التجاري، ومكاناً آمناً للاستقرار المؤقت، ثم ما لبثت أن تطورت تلك المحطات حتى أصبحت مستوطنات وفد إليها الكثير من المهاجرين الجدد، الذين يحملون حضارة وثقافة جديدة لاقت قبولاً واسعاً من طرف السكان المحليين الذين كانوا في حاجة ماسة إلى تلك النظم والمظاهر الحضارية الوافدة، فأخذوا عنهم سبل الحضارة المتمثلة في اللغة والثقافة والديانة والتقنيات الزراعية وسبل وأساليب الري وغيرها.

وبالإضافة إلى تلك المستوطنات الساحلية فكان للمناطق الجنوبية نصيب وافر من هذا الإشعاع الحضاري حيث نمت العديد من المدن التي تقع على الطرق التجارية وأصبحت من حواضر تلك المناطق كمدينة غدامس ومدينة جرمة(عبدالحفيظ الميار2001، ص60).

وتعتبر هذه المرحلة من أهم مراحل تطور منطقة المدن الطرابلسية، حيث اتسع نطاق التأثيرات الفينيقية على السكان الليبيين الذين استقروا جنباً إلى جنب مع المهاجرين الفينيقيين في المستوطنات الفينيقية الساحلية، وبدأوا في تطوير تلك المستوطنات وبنائها وفق المتطلبات الحضارية الجديدة، حتى ارتقت العديد منها إلى مصاف المدن المتحضرة مثل لبده الكبرى وويات وصبراته.

وبطبيعة الحال فقد شارك الليبيون في بناء وتعمير تلك المدن التي أقيمت على أراضيهم وبموافقتهم، وأنهم كانوا جزءاً لا يتجزأ من سكان تلك المستوطنات، حتي إن الكثير من العائلات الغنية أصبحت مع مرور الوقت تسيطر وبشكل واضح على شئون تلك المدن الداخلية، والدليل على ذلك هو التعايش السلمي بين الطرفين وعدم ذكر أي مصدر تاريخي لنشوب حرب أو صراع نشب بينهم زمن التواجد الفينيقي في المنطقة، وبالرغم من عدم وجود أي معلومات عن الصفات الأنثروبولوجية لسكان تلك الحواضر بحيث لا يمكننا الجزم بهوية وأصل سكان المدن الساحلية، إلا أنه بالمقارنة مع مدينة قرطاجة وبعد دراسة دقيقة للهياكل العظمية الموجودة بمقابر المدينة تبين أنه يوجد عدد كبير من سكانها ينتمون إلى أصول محلية، أو من السلالات الزنجية(احمد محمد انديشة،ص64)، وهذا يؤكد الاختلاط والتعايش بين الأجناس المختلفة حتى في العاصمة قرطاج.

وهذا ما أردت إيضاحه وهو عدم قبول الرأي القائل بأن الفينيقيين قد زحفوا على الأماكن التي اقاموا عليها هذه المحطات وطردوا السكان المحليين منها بالقوة، وعاملوا السكان المحيطين بهم كعبيد أو مستأجرين، ولو حدث ذلك فعلاً فهل يسلم الليبيون بما جرى ويتركون أماكن استقرارهم دون اية مشاكل؟

إن سكان الساحل ومناطق الدواخل في إقليم المدن الطرابلسية رحبوا بالقادمين الجدد وامتزجوا بهم آخذين عنهم سبل الحضارة الوافدة، التي انتشرت بفعل هذا التمازج الحضاري في كل مناطق الاقليم، فنشطت التجارة، وتحسن أداء روادها، وشارك التجار الفينيقيون القوافل التجارية الليبية في العديد من الرحلات الصحراوية (محمد سليمان أيوب، 1968م،ص177).

أما الزراعة فنجدها قد لاقت اهتماماً كبيراً من قبل الفينيقيين حيث شجعوا العنصر الليبي على استصلاح الكثير من الأراضي وزراعتها وغرسها بالعديد من الأشجار المثمرة، وأخذوا عن أولئك الوافدين الكثير من التقنيات الزراعية التي سهلت لهم استزراع وتشجير معظم الأراضي الصالحة للزراعة، حتى أصبحت الزراعة من أهم مقومات الإقليم الاقتصادية. ولم يتدخل الفينيقيون في الشئون الخاصة بالقبائل المحلية أو يحاولوا فرض سيادتهم عليها بقوة القانون.

الليبيون تحت الحكم القرطاجي

أسس الصوريون مدينة قرطاجة حوالي 814ق.م وأصبحت من أكبر المدن الفينيقية على ساحل منطقة المغرب القديم، ولم تنفصل عن المدينة الأم صور، بل أصبحت أهم مركز تجاري لها في غرب المتوسط(موسى امعمر زايد،2014م،ص23).

وتزودها سنوياً بالكثير من المنتوجات والنذور التي تُحمل إلى معبد الإله ملقارت، والتي يرى البعض بأنها ضريبة سنوية تعادل عُشر دخل المدينة(عبدالحفيظ الميار2001، ص114).

وبعد سقوط مدينة صور على يد البابليين في أوائل القرن السادس ق.م ، أصبح دورها الريادي يتراجع أمام بروز قوة قرطاجة التي أصبحت بكل جدارة زعيمة المستوطنات الفينيقية في غرب المتوسط، وقد سنحت لها فرصة التواجد الإغريقي في حوض المتوسط بأن تضم إليها كل المستوطنات والمدن الفينيقية وما جاورها، وبذلك أصبح إقليم المدن الطرابلسية تحت الحماية القرطاجية(Barbour,A, 1962,P.343).

ونظراً لأهمية الإقليم من الناحية التجارية والزراعية عملت قرطاجة على إحكام السيطرة عليه بكل الوسائل المتاحة، وحيث إن قرطاجة كانت في أوج قوتها وجبروتها فمنعت أي اتصال خارجي مع مدن

الإقليم، كما أوقفت كل المعاملات التجارية مع شعوب البحر المتوسط التابعة لروما إلا عن طريقها رسمياً.

ونصت إحدى المعاهدات التي أبرمتها مع روما على عدم السماح للرومان بالمتاجرة مع مدن الساحل الليبي(احمد محمد انديشة،2009، ص78)، كما أنها منعت دخول التجارة الإغريقية غرب سرت، وعملت على ترسيم الحدود الشرقية بينها وبين مناطق النفوذ الإغريقي في شرق البلاد فيما بين القرنين الرابع و الخامس قبل الميلاد (احمد محمد انديشة،1993، ص39)، إضافة إلى أنها كانت تمنع سفن الشحن من التحميل والتفريغ في أي ميناء على الساحل الليبي عدا موانئها(رجب عبدالحميد الاثرم، 1998م، ص199).

وأقامت لهذا الغرض الكثير من أبراج المراقبة وعدداً من المراكب لمراقبة السفن الأجنبية التي تحاول الاقتراب من السواحل الأفريقية، كما فرضت قرطاجة ضرائب باهضة على مدن الإقليم، وكان لزاماً على هذه المدن إمدادها بالمقاتلين أوقات الحروب والأزمات، وربما امتد سلطان قرطاجة الجائر إلى مناطق نفوذ القبائل المحلية، فحادثة محاولة الإغريق بناء مستعمرة لهم بالقرب من وادي كينبس وعدم تحرك قبيلة المكاي التي وقعت الواقعة على جزء من أراضيها لرد المعتدين يجعلنا نرجح أن قرطاجة قد سلبت من مدن الإقليم كل مقدراته العسكرية، وربما منعتها من خوض غمار أي حرب إلا بعد موافقة قرطاجة، وبعد أن مكث المغيرون حوالي ثلاث سنوات تدخلت قرطاجة بقوة عسكرية مدعومة بجيش من القبائل المحلية واستطاعوا طرد الإغريق وتدمير المستعمرة حوالي عام 517ق.م (عبدالحفيظ الميار،2001،ص115)،

وربما يرجع سبب فرض سياسة العزلة على مدن الساحل الطرابلسي إلى أسباب أمنية واقتصادية، وسياسية، فمن الناحية الأمنية كان خوف قرطاجة من بعض القوى الإقليمية القريبة كالإغريق والرومان من التسرب إلى هذه المنطقة المهمة اقتصادياً واستراتيجياً، فوجودها يشكل خطراً كبيراً على سيادة قرطاجة وهيبتها.

أما من الناحية الاقتصادية فنحن نعرف أن التجارة هي عصب الحياة الرئيسي في قرطاجة ومدن الساحل الليبي عموماً، لذلك رفضت قرطاجة أن تسمح بأي منافس آخر لها في حوض المتوسط، فكان احتكار التجارة البحرية، ووضع اليد على تجارة الصحراء أمراً غاية في الأهمية.

وسياسياً كانت رغبة قرطاجة في توسيع مناطق نفوذها شرقاً منذ سيطرتها على إقليم المدن الطرابلسية أمراً ملحاً، فعملت على اقلاق السلطات الإغريقية بأن تقوم بين الحين والآخر بمهاجمة

عدد من مراكز النفوذ الإغريقي في إقليم برقة بمساعدة قبيلتي النسامونيس والمكاي، وقد ضمنت بذلك وفق اتفاقيات سلام أُبرمت بينها وبين الإغريق العديد من المكاسب التجارية والسياسية(راضية ابوعجيلة، 2009، ص169) ، واستطاعت إحكام السيطرة على كل أراضي الإقليم والاستحواذ على مقدراته، وفرضت على المدن الطرابلسية ضرائب باهضة أثرت سلباً على ازدهارها وتقدمها، إضافة إلى ذلك فقد كانت المدن الطرابلسية ملزمة بتحمل جزء كبير من أعباء الحروب القرطاجية، وتم تجنيد عدد كبير من الليبيين كمقاتلين في الجيش القرطاجي(شارل اندريه جوليان،1969، ص47).

وقد أطلق الإغريق ومن بعدهم الرومان على الليبيين في إقليم المدن الطرابلسية والذين ضمتهم قرطاجة إلى رعايتها المباشرة، اسم الليبو فينيقي، وربما جاءت هذه التسمية نتيجة لاختلاط الليبيين في مراكز المدن الساحلية بالفينيقيين الوافدين عن طريق المصاهرة والمشاركة في الأعمال اليومية، مما أدى إلى تأثرهم بالحضارة الفينيقية وتطبعهم بها، وقد أصبحت هذه الطبقة من أغنى الطبقات في المدن الطرابلسية منذ أوائل العصر الروماني، واستمرت في التوسع في العقود التالية نحو مناطق الدواخل، ومنطقة ما قبل الصحراء(محمد محي الدين المشرفي، 1960م،ص89).

وليس غريباً أن تتم معاملة هذه العناصر معاملة الفينيقيين الأصليين في المدن الطرابلسية أو حتى في قرطاجة نفسها، ففي هذا الصدد يذكر ديودورس الصقلي أن سكان قرطاجة الفينيقيين لهم نفس الحقوق والقواسم المشتركة في الحياة العامة مع الليبو فينيقيين الذين يسكنون المناطق الساحلية (Moscati, 1972,P.90).

أما المجموعات القبيلة التي تقطن الهضاب البعيدة والأودية ومناطق الدواخل؛ فبالرغم من استقلالهم عن قرطاجة في أنماط حياتهم السياسية و أساليب حكمهم المحلي إلا أنهم كانوا يدفعون الضرائب المجحفة التي تصل أوقات السلم إلى ربع المحصول وإلى نصفه أيام الأزمات والحروب(مصباح علي احمد، 2015م، ص39).

لذلك من خلال ما تقدم يمكننا القول بأن الأوضاع السياسية والاقتصادية في إقليم المدن الطرابلسية قد تدهورت كثيراً أيام الوصاية القرطاجية التي ضيقت الخناق على التجار والمزارعين واخضعتهم لتسلط الحكومة المركزية بحجة توفير الحماية لهذه المدن وظهيرها، فقد عرقلت هذه السياسة نمو المدن الطرابلسية وتطورها، و أسهمت في ركود جميع أوجه النشاط الاقتصادي في الإقليم وخاصة التجارة التي كانت تعتبر الرافد الأساسي من روافد الاقتصاد الطرابلسي، حيث دلت

المكتشفات الأثرية على أن مدينة صبراته لم تحقق أي تقدم أو توسع خلال الفترة الأخيرة من عهد الوصاية القرطاجية في القرن الثالث قبل الميلاد(Salem Chaker. 2005, P.8) .

واستمرت السيطرة القرطاجية على إقليم المدن الطرابلسية حتى نهاية الحروب البونية التي انتهت بهزيمة قرطاجة وتدميرها، وتم ضم الإقليم إلى مناطق نفوذ الدولة النوميدية بقيادة ماسينسان(محمد الصغير غانم، 2006م، ص65).

الليبيون بين النوميديين والرومان

انتقلت تبعية إقليم المدن الطرابلسية بعد تدمير قرطاجة إلى المملكة النوميدية، وخلال هذا العهد تمتعت مدن الإقليم بالحرية التامة، واستراحت من عبء الضرائب الثقيلة التي كانت تدفعها لقرطاج، ومن دفع شبابها في غمار الحروب التي اثقلت كاهلهم، وانتهاء سياسة العزلة التي كانت مفروضة على مدن الإقليم، فاستعادت نشاطها التجاري وشرعت في تكوين علاقات تجارية مع بلدان غرب المتوسط(عبداللطيف محمود البرغوثي، 1971م، ص312)، كما عقدت مع الرومان معاهدات صداقة، مما أسهم في إثراء المدن الساحلية وازدهارها، وشجع الكثير من أصحاب الحرف والتجار وأصحاب رؤوس الأموال الإيطاليون إلى القدوم لتلك المدن والاستقرار فيها واستثمار طاقاتهم وأموالهم في هذا الإقليم الغني، وتذكر المصادر التاريخية الكثير من الأسماء الإيطالية اللامعة التي وصلت إلى مدن الإقليم منها على سبيل المثال رجل الأعمال الإيطالي هيرينيوس Herennius (احمد محمد انديشة، 2009،ص80)، الذي استقر في المدينة منذ أواخر القرن الثاني ق.م Graham.A) (P.13, ، وعائلة فولفاي Fulvii التي استقرت في لبدة منذ أواخر القرن الأول ق.م، وارتبطت بالمصاهرة بالعديد من العائلات اللبدوية المشهورة كعائلة آل سبتيميوس(ماتنجلي، 2009م، ص 173).

وخلال هذه الفترة التاريخية شهدت المنطقة تقدماً كبيراً في كل المجالات، ساعدها في ذلك فترة الهدوء والاستقرار السياسي، واستمر الامر كذلك حتى نهاية الحرب الأهلية وانتصار قيصر الذي أعاد تشكيل خارطة المنطقة السياسية من جديد.

ولإيضاح دور السكان المحليين في إقليم المدن الطرابلسية خلال العصر الروماني سنتحدث عنه في ثلاث نقاط رئيسية حسب الأوضاع المكانية للسكان:

أولاً: أوضاع السكان الليبيين في مراكز المدن الساحلية :

عرفنا فيما سبق مدى التلاحم والامتزاج الحضاري الذي ساد بين السكان المحليين والوافدين الفينيقيين، وأدى بدوره إلى نمو وازدهار تلك المحطات التجارية التي وصلت ثلاث منها إلى ذروة

الحضارة والرقي، وهي لبدة الكبرى وويات وصبراته، والذي تمخض بميلاد عنصر سكاني جديد عُرف بالعنصر الليبوفينيقي.

وبعد انتهاء مرحلة الحكم القرطاجي، والتغيرات السياسية التي حدثت في المنطقة آنذاك، تمتعت مدن الإقليم باستقلال فِعْليّ خلال القرن الأول قبل الميلاد واستمرت كذلك حتى عهد الإمبراطور تيبريوس، ولم يتم إخضاعها بالقوة للسيادة الرومانية، ولم يتم إجبار مواطنيها على التنازل عن الأراضي الزراعية والخدمية للمستوطنين الرومان(Birly,A.R,1988,P.82)

وفي تلك المدن عمل جميع السكان على وتيرة واحدة من أجل بنائها وتطورها، وكانوا متساوين في الحقوق والواجبات، وعمل السكان المحليون على تقليد الوافدين للاستفادة من خبراتهم الحضارية وثقافتهم، وسبل حياتهم اليومية، وهو ما جعلهم يفقدون جزءاً من خصوصياتهم كاللغة والدين والعادات أو يحاولون مقارنتها بالواقع المفروض عليهم لكي تتماشى مع حضارة العنصر الأرقى.

وقد أصبحت هذه العناصر السكانية(الليبوفينيقي) من أغني طبقات المجتمع المدني وبفعل ثرائها وإمكانياتها عملت على التوسع إلى المناطق الداخلية لاستثمار الأراضي الزراعية الخصبة وإقامة المشاريع الزراعية المتطورة.

وقد شكل العنصر الليبوفينيقي أغلبية سكان المدن الساحلية، وبما أن غالبيتهم من التجار فقد شكلت هذه الطبقة طائفة غنية زاد ثراؤها بفعل ازدهار التجارة وتطورها، وأصبحت تمثل طبقة الأرستقراطية في المدن الساحلية، ومن هؤلاء التجار كوينتوس سيرفيلوس Quintus Servilius الذي اشتهر بتصدير الجرار الفخارية الكبيرة إلى ايطاليا، وتؤكد المكتشفات الأثرية الطابع الليبوفينيقي للسكان، ففي مدينة ويات عُثر على معبد توفيت في منطقة الغيران، وفي صبراته عُثر على معبد توفيت في غرب المدينة وحوض رخامي مكرس للإله بعل سارتون (Taborelli, L, 1995, P.33)

و أسهم هؤلاء النخبة في دعم النظام الحكومي والإدارة المحلية، وفي بناء وصيانة الكثير من المشاريع العامة، واستطاع عدد منهم السفر إلى روما والإقامة فيها والحصول على أرقى الوظائف الحكومية، حيث وصلت مجموعة من هؤلاء إلى رتبة الفرسان الرومان Roman equestrian order، وعدد آخر من أعضاء مجلس الشيوخ، ومنصب نائب القنصل، وكان قائد الحرس الإمبراطوري لاتيوس Laetus أفريقي الأصل، وسبتيموس سيفيروس Septimius Severus حاكم بانيونيا وقائد لثلاثة فيالق رومانية الذي أصبح امبراطوراً لروما 192م مواطناً من لبدة الكبرى(Birly, A.R., 1988, P.82).

كما برزت العديد من الأسر والعائلات التي كان لها دور مهم في تسيير أمور الدولة وتنمية وتطوير المدينة مثل عائلة طبابي في لبدة ومنها حنبل طبابيوس الذي أقام على نفقته بناء السوق العام في لبده

الكبرى عام 8ق.م، والمسرح الروماني عام 1 -2م، ومن العائلات المشهورة عائلة السبتماني اللبدوية التي اشتهرت بالعلم والفلسفة والثراء أيضاً ومن أبنائها الفيلسوف ل.انايوس، ولوكيوس سبتيموس سيفيروس جد الإمبراطور سبتيموس سيفيروس الذي سافر إلى روما ثم عاد عام 109م حاكماً للمدينة(موسى امعمر زايد، 2014، ص 182).

لذلك يمكننا القول بأن الليبيين في المدن الساحلية اقتحموا معترك الحياة الجديدة وتأثروا بجيرانهم، واستفادوا الكثير من نظم الحضارة الوافدة وانصهروا فيها، وشاركوا مشاركة فاعلة ومؤثرة في تاريخ هذه المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ونهضوا ببلادهم ومدنها حتى أصبحت من أهم المراكز الرومانية في أفريقيا، ومن ثم تشبعت تلك المدن بتأثيرات الحضارة الرومانية، التي طغت على الثقافات السابقة باعتبارها حضارة وثقافة الدولة الحاكمة، ودخلوا في فلكها، وحملوا الأسماء الرومانية بدلاً من البونية، وتفاعلوا مع المكونات الرومانية في تلك المدن وأصبحوا مواطنين رومانا قلباً وقالباً، وكانوا جزءاً لا يتجزأ من مقومات هذه الحضارة التي مازالت شواهدها الأثرية شاخصة للعيان حتى يومنا هذا.

ثانياً: الليبيون داخل منطقة الحدود الرومانية:

لقد أثبتت الأدلة الأثرية، والمصادر التاريخية الأدبية بما لا يدع مجالاً للشك بأن منطقة الريف الطرابلسي من ضواحي المدن الساحلية وصولاً إلى منطقة الحصون الحدودية، أنها جزء مهم من إقليم المدن الطرابلسية، وأن هذه المناطق تحملت العبء الأكبر في حمل مشعل الحضارة، والازدهار الاقتصادي، والرقي الاجتماعي طوال فترة القرون الخمسة الأولى الميلادية، وأن تطور المدن الساحلية وازدهارها انعكس إيجابياً على المناطق الداخلية وبالعكس.

إن سكان منطقة ضواحي المدن الطرابلسية وريفها كان أغلبيتهم من الليبيين ومن بعدهم الفينيقيين، بالإضافة إلى عدد كبير من الأسر والعائلات الرومانية التي استوطنت في مناطق مختلفة من أراضي الإقليم، ومن رجال الفرق العسكرية الرومانية الذين انهوا الخدمة العسكرية واستقر بهم المقام في هذه الأراضي الجميلة، ثم أصبح خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين معظم جنود الفرقة الأوغسطية الثالثة يجندون من أفراد القبائل الليبية وعندما تنتهي فترة خدمتهم يكافئون بقطع أراضٍ وعدد من رؤوس الماشية والعبيد لتوطينهم في تلك الأراضي التي ربما يكونون من المدافعين عنها(موسى امعمر زايد،2004م، ص 69).

وقد لعبت العناصر المجندة دوراً مهماً في ترسيخ الوجود الروماني في المنطقة، فكانت من مهامها الأساسية حفظ الأمن وقمع الثورات التي تحدث بين الحين والآخر بسبب فقدان المجموعات القبلية لأجزاء من أراضيها التي زحفت عليها السلطات الرومانية (Brogan,O& Smith,D.J., 1984, P.33).

وعندما قام الرومان بتنظيم الولايات ومسح الأراضي وتعيين أراضي المدن والاقطاعيات العامة والخاصة، وقاموا بتحديد الأراضي التي تقيم عليها القبائل المحلية، وقد سعت السلطات الرومانية وراء هذا الإجراء إلى توطين عدد من المجموعات القبلية في أماكن محددة، ربما للتحكم فيها والحد من تحركاتها وضمان عدم مساندتها لمجموعات أخري ضد السلطات الرومانية، وكذلك لتنظيم الضرائب وتسهيل جمعها.

كما قامت السلطات الرومانية بمصادرة الكثير من الأراضي التي كانت تابعة لبعض القبائل التي أعلنت العصيان والتمرد علي الرومان، ومسحها وإحصائها لإصباغ الطابع القانوني عليها، وإدراجها ضمن ممتلكات الشعب الروماني، لكي يتم الاستفادة منها وتأجيرها وفق القوانين الرومانية، أو يتم توزيعها على الجنود المسرحين أو الفلاحين الوافدين من روما (Ganat,. 1913, P.331)،وتم أيضاً تحديد أماكن تواجد القبائل الرعوية ومنعها من الرعي في الأماكن الزراعية، التي اتجهت بدورها إلى الجنوب نحو الأراضي شبه الصحراوية، واجتازت بذلك منطقة الحدود الرومانية وأصبحت من القبائل التي ناهضت الوجود الروماني وعملت على إنهائه والتحرر من نفوذه.

وقام الرومان بطرد كثير من الفلاحين المحليين من أراضيهم الزراعية، والذين شملهم قرار الإبعاد، وتقسيمها إلى مزارع محددة تم بيعها للعناصر الرومانية الرأسمالية، وأعضاء من مجلس الشيوخ، وأفراد من حاشية الحكومة (موسى امعمر زايد، 2004، ص 131)، وقد أُوكلت مهمة العمل في هذه الأراضي إلى العناصر المحلية والعبيد، وفي هذا الصدد يذكر الفيلسوف ابوليوس أن مزرعة زوجته بودنتيلا في ضواحي الإقليم بها 400 عامل يشتغلون بالزراعة والرعي (ابوليوس، 1974م، ص136)، وقد أدى ذلك الى زيادة القدرة الانتاجية في تلك الاقطاعيات الكبيرة، وترسيخ عملية الاستيطان والاستقرار الريفي لعدد كبير من سكان المجتمعات الريفية الذين الفوا حياة الاستقرار والحياة الفلاحية، وربما كانوا من الطبقات الي صودرت أراضيها، أو كانوا من رجال القبائل البدوية التي وصلت الى تلك المناطق بحثاً عن حياة أفضل واستقرار دائم.

بالإضافة إلى ذلك عملت السلطة الرومانية على بسط نفوذها على منطقة الحدود الرومانية في جنوب الإقليم وذلك من خلال اخضاع القبائل المحلية التي تقطن تلك المناطق والتي مازالت محافظة

على ثقافتها ولغتها البونية، فقام الرومان باستمالة زعماء تلك القبائل ومنحهم العديد من الامتيازات والألقاب التشريفية منها لقب تربيون Tribunus، كما منحوا أيضا الجنسية الرومانية، و و تم إعطاؤهم بعض الصلاحيات الخاصة بالإدارة المحلية وتطبيق القانون الروماني وجباية الضرائب، كما كانوا مسئولين على مراقبة مناطق الحدود وضبطها(عبدالحفيظ الميار، 2004م، ص23).(انظر الصورة 2)

الصورة (2) زعيم ليبي يحمل بيده اليمنى لفافة ورق من المرجح انها تمثل السلطة والقانون عثر عليها في مقبرة خنافس

تصوير الباحث/ المصدر متحف بني وليد

كل ذلك في سبيل ترسيخ ولائهم وتعاونهم مع الحكومة الرومانية، وصولاً إلى استتباب الأمن وتأمين الطرق التجارية ، والمحافظة على المكاسب السياسية والاقتصادية التي حققها الرومان (عبدالحفيظ الميار،2001، ص414).

هذا وقد كانت الزراعة هي العمود الفقري للاقتصاد الطرابلسي خلال العصر الفينيقي والروماني، ويشتهر الإقليم بأنه أحد المراكز المهمة في إنتاج الحبوب، والزيت الذي أصبح ومنذ القرن الأول قبل الميلاد عملة الاقليم(موسى امعمر زايد ،2015م، ص183)، وتنهض بقايا المعاصر شاهداً على الكميات الهائلة التي كانت تنتجها أراضي الإقليم، حيث سُجل ما يزيد على 1500 معصرة تقع أغلبها في منطقة لبدة وما جاورها، ومنطقة ما قبل الصحراء (Ahmed,M.A., 2010, P.11)

ونتيجة لذلك فقد كانت الظروف ملائمة لاتساع العمليات الزراعية، في ظل توافر الأمن والاستقرار، واستحداث نظام الرقابة الشامل على عمليات الانتاج والتسويق، وقد أدى ذلك الى زيادة الإنتاج بشكل كبير، وازدهار شامل للمدن الساحلية(عبدالحفيظ الميار،2001، ص316).

وفي مناطق جنوب الإقليم حيث الأودية الخصبة ومناطق الجبل الغربي، فقد عُرفت الزراعة منذ عهود قديمة، وزادت اتساعاً وتقدماً خلال العصر الفينيقي، وأصبحت أكثر كثافة في العصر الروماني، واستمر سكان تلك المناطق يمارسون حرفة الزراعة حتى العصر الاسلامي، حيث يذكر البكري (القرن العاشر الميلادي) ان وادي سوف الجين ينتج محصولاً كبيراً من الغلات الزراعية والحبوب(عبدالحفيظ الميار، 2010م، ص104).

وقد كشفت الدراسات الأثرية عن ثراء كبير حدث للسكان المحليين بفعل هذه النهضة الزراعية خلال القرون الميلادية الثلاثة الاولى ، وقد انعكس ذلك على أنماط وتقنيات البناء وحياة الترف التي شهدتها أجزاء كبيرة من مناطق الإقليم، فظهرت الكثير من المستوطنات الزراعية الغنية وشيد أصحابها منازلهم بطرق فنية على غرار قصور مناطق الحدود الرومانية، وشيدوا المعابد الكبيرة كمعبد أمون في منطقة الخضراء بترهونة، والذي أقامه أحد المواطنين على نفقته الخاصة، وهو مكرس لعبادة الإله أمون(جودشايلد، ، ص142)، وشيدوا الأضرحة الضخمة التي تخلد ذكرى موتاهم كضريح دوغة بترهونة(دي هاينز،1965م، ص172)، الذي مازال محافظا على شكله الطبيعي حتى الآن (انظر الصورة 3)

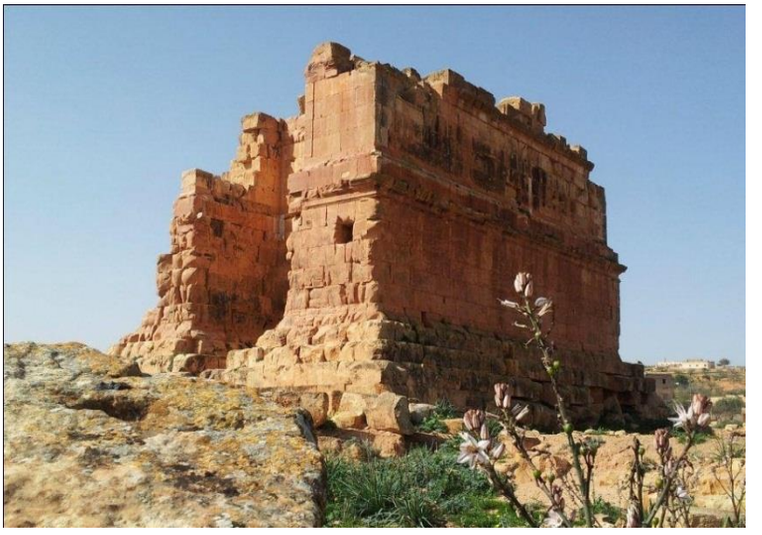

الصورة رقم(3) ضريح دوغة بترهونة

وأضرحة جرزة التي تزخر بالعديد من المنشآت المعمارية القديمة، ومباني القصور التي بنيت بأيدٍ ليبية، وانتشرت انتشاراً واسعاً في منطقة ما قبل الصحراء، وأصبحت في القرون التالية السمة المميزة للحضارة والعمران الليبي، وتشير الدراسات الأثرية لمواقع هذه المنطقة بأنها قد كانت مأهولة بالسكان ومن المراكز المهمة في المنطقة، ووصلت إلى قمة حضارتها فيما بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين، وهناك الكثير من المباني والمنشآت الحضارية التي لا يتسع المجال لذكرها (Brogan & smith, 1984, P.216).

ثالثا: القبائل الليبية خارج منطقة الحدود:

لم يحظ السكان المحليون خارج منطقة الحدود بالاهتمام والحرية والثراء الذي كنا بصدد الحديث عنه في الفقرات السابقة، وإنما عاشوا في قبائلهم التي اعتادت حياة الترحال والبحث الدائم عن مصادر أفضل للعيش، والمعروف عن هذه القبائل أنها ناصبت العداء للحكومات الرومانية المتعاقبة، وربما كان السبب وراء ذلك هو فقدان أراضيها ومجالاتها الحيوية داخل منطقة الحدود، وأن السلطات الرومانية انتزعت ملكيات تلك القبائل وطردتها بعيداً خارج المناطق الاستراتيجية محل الاهتمام الروماني(موسى امعمر زايد، 2014 ص265).

وعلى الرغم من الاتفاقيات والمعاهدات التي أُبرمت بين السلطات الرومانية وزعماء القبائل المحلية، إلا أن تلك القبائل لم تتوقف عن محاولاتها الزحف باتجاه الشمال حيث الأراضي الخصبة وتوفر أساليب الحياة المترفة والعيش الكريم، وأصبحت تشن الغارات بين الحين والآخر على ضواحي الإقليم، مما يتسبب في دمار الممتلكات الرومانية وإتلاف المزروعات والاشجار ، كما وصلت حملات التدمير تلك إلى المدن الساحلية.

ومن أهم تلك القبائل قبيلة الأوستریاني التي لا يعرف أماكن إقامتها على وجه التحديد، ويرى البعض بأن يكون مقر إقامتها قرب خليج سرت الكبير، وذلك استناداً إلى سرعة هذه القبيلة في مهاجمة كل من إقليم المدن الطرابلسية وإقليم المدن الخمس في أوقات غير متباعدة، وتشير الأدلة التاريخية بأن التدمير والخراب الذي حل بالمدن الساحلية لبدة، وويات، وصبراته كان كبيراً(مصطفى كمال عبدالعليم، 1965م،ص101).

ونتيجة لضعف الإدارة المركزية وابتزاز القادة العسكريين وتقاعسهم عن الدفاع عن الممتلكات الرومانية والمدن الساحلية تكررت عمليات الإغارة من قِبل تلك القبائل التي رفضت الرومنة والانصياع للسلطات الرومانية ووصلوا إلى مشارف لبده وخربوا المزارع والحقول وأحرقوا المحاصيل، وقتلوا عدداً كبيراً من

سكان الريف، ولولا تحصن سكان المدينة بأسوارها المنيعة لكانت لاقت مصيرها المحتوم. (Mattingly,D., P.174)

وقد وسعت قبيلة الأوستریاني من أعمالها التخريبية التي طالت الكثير من المنشآت العامة في مدينة صبراتة، وبعد ذلك بفترة قصيرة دمرت قبيلة الأوستریاني ما تبقى من ضواحي لبدة ومزارعها، وحاصروا المدينة لمدة ثلاثة أيام(Mattingly,D. ,P.178).

وقد جلبت تلك الغارات والحروب الدمار والخراب في المدن الساحلية، وترك الكثير من السكان مزارعهم التي أصبحت أثراً بعد عين، ولم تعد مناطق الإقليم الساحلية أو الداخلية تتمتع بالأمن والاستقرار، وقل الاهتمام بالزراعة وأُهملت المزارع والاقطاعيات الزراعية، وبدأت تلك الحضارة في طريقها نحو الانحدار، كما أن التغير المناخي كان سبباً في تدهور المنطقة وعلى رأسها مدينة لبده الكبرى التي زحفت عليها الرمال وبدأت المدينة في الانحسار حتى هُجرت تماما في بداية العصر الإسلامي، وقد كانت زيادة عدد السكان والتغيرات السياسية والاجتماعية، والرعي الجائر للحيوانات من أهم العوامل التي عجلت في انهيار سياسة الاستيطان الزراعي في المنطقة، وقد تعرضت البلاد لهزات أرضية قوية دمرت كثيراً من المراكز الحضارية في المدن الساحلية حوالي 365موعلى الرغم من ذلك فقد استمر الليبيون سكان مناطق الحدود في حياتهم الطبيعية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وانتعشت أحوالهم وكانوا أحسن حظاً من سكان الساحل الطرابلسي، حيث استمروا في زراعة الوديان وسفوح الجبال بما يحقق لهم الاكتفاء الذاتي من القمح والشعير والزيتون، ويؤمن الغذاء الكافي لهم ولقطعانهم وحيواناتهم.

قائمة المصادر والمراجع

اولا / المصادر :

1/ Diodorus, III.
2/ Herodotus, IV .
3/ Pliny, V .
4/ Polybius .
5/ Ptolemy.IV,3,6; Pliny , IX .
6/ Strabo, XVII .

ثانياً / المراجع العربية :

1/ ابوليوس، دفاع صبراته، ترجمة: على فهمي خشيم، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، 1974م .

2/ احمد محمد انديشة، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، مصراته،1993.

3/ الحياة الاجتماعية في المرافئ الليبية وظهيرها في ظل السيطرة الرومانية، منشورات جامعة التحدي سرت، 2009م

4/ اصطيفان اكْصيل، تاريخ شمال افريقيا القديم،ج1، ترجمة: محمد التازي سعود ، الرباط، 2007م .

5/ دي هاينز، منطقة طرابلس، دار الفرجاني، طرابلس، ط3، 1965م .

6/ راضية ابوعجيلة، أوجه التشابه والاختلاف بين الاستيطان الفينيقي والاغريقي في ليبيا القديمة، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية،2009 .

7/ رجب عبدالحميد الاثرم، محاضرات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات جامعة قاريونس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط3، 1998م.

8/ رشيد الناضوري، المغرب الكبير،ج1 العصور، دار النهضة العربية، 1981م .

9/ شارل اندريه جوليان، تاريخ افريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي ورفيقه، الدار التونسية للنشر،1969م .

10/ عبدالحفيظ الميار، الحضارة الفينيقية في ليبيا، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2001م .

11/ النشاط الاقتصادي في اقليم المدن الثلاث في العصر الروماني، مجلة البحوث التاريخية، السنة الثانية والثلاثون، العدد الثاني، يوليو 2010م .

12/النظم الادارية في اقليم طرابلس في العصر الروماني في ضوء النقائش اللاتينية والفينيقية، المؤتمر السادس للجمعية التاريخية، 2004م .

13/ عبداللطيف محمود البرغوثي، التاريخ الليبي القديم، منشورات الجامعة الليبية، الطبعة الاولى،1971م .

14/ علي فهمي حشيم، نصوص ليبية ،1975.

15/ ماتنجلي، منطقة طرابلس في العهد الروماني، ترجمة: محمد الطاهر الجراري ورفيقه، المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية، 2009م .

16/ محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، دار الهدى، مليلة، الجزائر، 2006م .

17/ محمد بيومي مهران، المغرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1990 .

18/ محمد سليمان أيوب، جرمة في عصر ازدهارها من100 -450م، ليبيا في التاريخ، بيروت، 1968م.

19/ محمد محي الدين المشرفي، أفريقيا الشمالية في العصر القديم، الرباط، 1960م .

20/ مصباح علي احمد، "النشاط الزراعي في هضبة ترهونة ودوره في توطين الاستيطان خلال العهد الروماني"، المؤتمر العلمي الاول لكلية الآداب والعلوم ترهونة،ج1، 2015م .

21/ مصطفى كمال عبدالعليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، 1965م .

22/ موسى امعمر زايد، النظم الدفاعية في ولايات شمال افريقيا الرومانية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب والعلوم ترهونة – جامعة المرقب،2004م .

23/حضارة الحصون في اقليم المدن الطرابلسية، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب – جامعة عين شمس،القاهرة،2014م .

24/ النشاط الزراعي في ضواحي اقليم المدن الطرابلسية خلال العصر الروماني، مجلة القلعة – كلية الآداب والعلوم مسلاته، العدد الثالث،ربيع2015م .

25/الوضع الديموغرافي والاجتماعي في اقليم المدن الطرابلسية خلال العهد الروماني، المؤتمر العلمي الاول لكلية الاداب والعلوم ترهونه، ديسمبر 2015م .

ثالثاً / المراجع الاجنبية :

1/ Ahmed,M.A., Rural Settlement and Economic activity: Olive oil and Amphorae production on the Tarhuna Plateau during the Roman , PHD, University of Leicester, 2010 .

2/ Barbour,A., "A survey of North west Africa: The Maghreb", London, 2ed, 1962 .

3/ Birly, A.R., The African Emperor Septimius Severus, London, 1988 .

4/ Brogan,O& Smith,D.J.,Ghirza A Libyan Settement in the Roman period, Department of Antiquities, Tripoli, 1984 .

5/ Cary, M , Geographical Back ground of Greek and Roman History, Oxford, 1949 .

6/ Ganat,.Armee Romaine d,Afrique, Militaire sous les Empereurs, Paris,2ed, 1913 .

7/ Goodchild, Libya in History, University of Libya- Faculty of Arts, 1968 .

8/ Graham .A, Roman Africa, Books for Libraries press Freeport, New York .

9/ Mattingly,D.J,1996c, Landscapes of Imperialism in Roman Tripolitania, L' Africa Romana, Olibia .

10/ Mattingly, Tripolitania,
10/ Moscati, Fenici e Carthgine, Turin, 1972 .
11/ Salem Chaker.,"Retour a un grand classique Libyque la dedicace a Massinissa", Studi Magrebini, V:III,Napoli, 2005 .
12/ Taborelli, L., Le stele Neo Puniche da osi di Gheran Karthago, 1995 .